

قصص الأنبياء

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم متابعة لملكهم فرعون ومخالفة لنبي الله ﷺ ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أقام الله على أهل مصر الحج العظيمة القاهرة وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول وهم مع ذلك لا يرجعون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون .

ولم يؤمن منهم إلا القليل قيل ثلاثة : وهم امرأة فرعون - ولا علم لأهل الكتاب بخبرها - ومؤمن آل فرعون الذي تقدمت حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصا المدينة فقال : { يا موسى إن الملائكة يأتون بك ليقتلوك فاخرج إني من الناصحين } .

قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ومراده غير السحرة فإنهم كانوا من القبط . وقيل بل آمن به طائفة من القبط من قوم فرعون والسحرة كلهم وجميع شعب بني إسرائيل ويدل على هذا قوله تعالى : { فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين } .

فالضمير في قوله : { إلا ذرية من قومه } عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه وقيل على موسى لقربه والأول أظهر كما هو مقرر في التفسير وإيمانهم كان خفيا لمخالفتهم من فرعون وسطوته وجبروته وسلطته ومن ملئهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم .

قال الله تعالى مخبرا عن فرعون وكفى بالله شهيدا : { وإن فرعون لعال في الأرض } أي جبار عنيد مشغل بغير الحق { وإنه لمن المسرفين } أي في جميع أموره وشئونه وأحواله ولكنه جرثومة قد حان انجفافها وثمره خبيثة قد آن قطافها ومنهجة ملعونة قد حتم إتلافها .

وعند ذلك قال موسى : { يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * }

فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم

الكافرين { فأمرهم بالتوكل على الله والإستعانة به والإلتجاء إليه فأتمروا بذلك فجعل الله

لهم مما كانوا فيه فرجا ومخرجا .

{ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا

الصلاة وبشر المؤمنين } .

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتا مميزة فيها

بينهم عن بيوت القبط ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض .

وقوله : { واجعلوا بيوتكم قبلة } قيل مساجد وقيل معناه كثرة الصلاة فيها .

قال مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم .

ومعناه على هذا : الإستعانة على ما هم فيه الضر والشدة والضيقة بكثرة الصلاة كما قال تعالى : { واستعينوا بالصبر والصلاة } وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى .
وقيل معناه : أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرّون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعاييدهم فأمرّوا أن يصلّوا في بيوتهم عوضا عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق في ذلك الزمان الذي افتضى حالهم إخفاءه خوفا من فرعون وملئه والمعنى الأول أقوى لقوله : { وبشر المؤمنين } وإن كان لا ينافي الثاني أيضا والله أعلم .
وقال سعيد بن جبير : { واجعلوا بيوتكم قبلة } أي متقابلة .
* * *

{ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سييل الذين لا يعلمون } .
هذه دعوة عظيمة دعا بها كريم الله ﷻ موسى على عدو الله ﷻ فرعون غضبا عظيما عليه لتكبره عن اتباع الحق وصدّه عن سبيل الله ﷻ ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل ومكابرتة الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي والبرهان القطعي فقال : { ربنا إنك آتيت فرعون وملأه } يعني قومه من القبط ومن كان على ملته ودان بدينه { زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك } أي وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا فيحسب الجاهل أنهم على شيء لكن هذه الأموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية والدور الأنيقة والقصور المبنية والمآكل الشهية والمناظر البهية والملك العزيز والتمكين والجاه العريض في الدنيا لا الدين .

{ ربنا اطمس على أموالهم } قال ابن عباس ومجاهد : أي أهلكها وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك : اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم صارت حجارة وقال محمد بن كعب : جعل سكرهم حجارة وقال أيضا : صارت أموالهم كلها حجارة ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له : قم اثني بكيس فجاء بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة ! رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : { واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم } قال ابن عباس : أي اطبع عليها وهذه دعوة غضب الله ﷻ تعالى ولدينه ولبراهينه .

فاستجاب الله ﷻ تعالى لها وحققها وتقبلها كما استجاب لنوح في قومه حيث قال : { رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا }

ولهذا قال تعالى مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملئه وأمن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعي أيضا : { قال قد أجيب دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون } .

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم فأذن لهم وهو كاره ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له وإنما كان في نفس الأرض مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم .

وأمرهم الله تعالى - فيما ذكره أهل الكتاب - أن يستعبروا حلياً منهم فأعاروهم شيئاً كثيراً فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم وشرع في استحاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم .

قال الله تعالى : { وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون * فأرسل فرعون في المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشردمة قليلون * وإنهم لنا لغاظون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم } .

قال علماء التفسير : لما ركب فرعون في جنوده طالبا بني إسرائيل يقفوا أثرهم كان في جيش كثيف عرمرم حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم وكانت عدة جنود تزيد على ألف ألف وستمئة ألف فإلى أعلم وقيل إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمئة ألف مقاتل غير الذرية وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمئة سنة وستة وعشرين سنة شمسية .

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ولم يبق ثم ريبولا لبس وعان كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون : { إنا لمدركون } وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه والجال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة وفرعون قد غالقهم وواجههم وعانوه في جنوده وجيوشه وعدده وعدده وهم منه في غاية الخوف والذعر لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر .

فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعانوه فقال لهم الرسول الصادق المصدق :

{ كلا إن معي ربي سيهدين } وكان في الساقية فتقدم إلى المقدمة ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأموأجه ويتزايد زبد أأأأه وهو يقول : هاهنا أأمرت ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار وقد أأوحى إله وجعله نبيا بعد موسى وهارون عليهما السلام كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله ومعهم أيضا مؤمن آل فرعون وهم وقوف وبنو إسرائيل بكمالهم عليه عكوف ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مرارا في البحر هل يمكن سلوكه ؟ فلا يمكن ويقول لموسى عليه السلام : يا نبي الله هاهنا أأمرت ؟ فيقول : نعم .

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر عند ذلك أأوحى الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم : { أن اضرب بعصاك البحر } فلما ضربه يقال إنه قال له : انفلق بإذن الله ويقال : إنه كناه بأبي خالد والله أعلم .

قال الله تعالى : { فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كالطود العظيم } ويقال إنه انفلق اثني عشر طريقا لكل سبط طريق يسرون فيه حتى قيل إنه صار فيه أيضا شبابيك ليرى بعضهم بعضا ! وفي هذا نظر لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاة . وهكذا كان ماء البحر قائما مثل الجبال مكفوفا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون وأمر الله ريح الدبور فلفحت حال البحر فأذهبتة حتى صار يا بسا لا يعلق في سنا بك الخيول والدواب .

قال الله تعالى : { ولقد أأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى } فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم * وأصل فرعون قومه وما هدى } .

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال فبإذن الرب العظيم الشديد المحال أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدي قلوب المؤمنين فلما جاوزوه وجاوزوه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه وكان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه .

فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه ولا سبيل عليه فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال وهو الصادق في المقال : { ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم * أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين * وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين * وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون * وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون * فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون * فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون * واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون * كم تركوا من جنات

وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين *
فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين * ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب
المهين * من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين * ولقد اخترناهم على علم على العالمين *
وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين { .

فقوله تعالى : { واترك البحر رهوا } أي ساكنا على هيئته لا يغيره عن هذه الصفة .
قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب
وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم .

فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعان ما عان هاله هذا المنظر
العظيم وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم فأحجم ولم يتقدم
وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم لكنه أظهر لجنوده
تجلدا وعاملهم معاملة العدا وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن
استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه : انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من
يدي الخارجين على طاعتي وبلدي ؟ وجعل يورى في نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيئات
ويقدم تارة ويحج تارات ! .

فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى في صورة فارس راكب على رمكة حائل فمر بين يدي فحل
فرعون لعنه الله فحمم إليها وأقبل عليها وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر واستبق
الجواد وقد أجاد فبادر هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضرا ولا نفعا فلما رأته الجنود قد سلك
البحر اقتحموا وراءه مسرعين فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين حتى هم أولهم
بالخروج منه فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر فضربه
فارتطم عليهم البحر كما كان فلم ينج منهم إنسان .

قال تعالى : { وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن في ذلك لآية وما
كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم } أي في إنجائه أوليائه فلم يغرق منهم
أحد وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة
وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة ولمناهج المستقيمة .

وقال تعالى : { وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا
أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * الآن وقد
عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك وبدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من
الناس عن آياتنا لغافلون { .

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفره القبط وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة
وترفعه أخرى وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم

والخطب الجسيم ليكون أقر لأعين بني إسرائيل وأشفى لنفوسهم فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وياشر سكرات الموت أناب حينئذ وتاب وآمن حين لا ينفع نفسا إيمانها كما قال تعالى : { إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم } . وقال تعالى : { فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون } .

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم أي حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم وقد قال تعالى لهما - أي لموسى وهارون - حين دعوا بهذا : { قد أجيب دعوتكما } فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليهما وأخيه هارون عليهما السلام .

ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [لما قال فرعون { آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل } قال لي جبريل : لو رأيته وقد أخذت من حال البحر فدمسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة] ! .

ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة وقال الترمذي : حديث حسن .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [قال لي جبريل : لو رأيته وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تناله الرحمة] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته : { آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل } قال : فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به .

ورواه الترمذي وابن جرير من حديث شعبة وقال الترمذي : حسن غريب صحيح وأشار ابن جرير في رواية إلى وقفه .

وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زاذان وليس بمعروف وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [قال لي جبريل عليه السلام : يا محمد لو رأيته وأنا أعطه وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له] يعني فرعون .

وقد أرسله غير واحد من السلف كابراهيم التيمي وقتادة وميمون بن مهران ويقال إن الضحاك

بن قيس خطب به الناس وفي بعض الروايات أن جبريل قال : " ما بغضت أحدا بغضي لفرعون حين قال : { أنا ربكم الأعلى } ولقد جعلت أدس في فيه الطين حين قال ما قال " .
وقوله تعالى : { آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين } استفهام إنكار ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك لأنه - وإِ أعلم - لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون : { يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين } قال إِبْنُ : { بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وأنهم لكاذبون } وقوله : { فاليوم ننجيكَ ببدنك لتكون لمن خلفك آية } .

قال ابن عباس وغير واحد : شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون حتى قال بعضهم إنه لا يموت فأمر إِبْنُ البحر فرفعه على مرتفع قيل على وجه الماء وقيل على نجوة من الأرض وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة إِبْنِ عليه ولهذا قال : { فاليوم ننجيكَ ببدنك } أي مصاحبا درعك كالمعروفة بك : { لتكون } أي أنت آية { لمن خلفك } أي من بني إسرائيل ودليلا على قدرة إِبْنِ الذي أهلكك ولهذا قرأ بعض السلف : " لتكون من خلفك آية " ويحتمل أن يكون المراد : ننجيكَ بحسبك مصاحبا درعك لتكون علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنت هلك وإِ أعلم وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء .
كما قال الإمام البخاري في صحيحه : حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قدم النبي A المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : " ما هذا اليوم الذي تصومونه " ؟ فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون قال النبي A لأصحابه : [أنتم أحق بموسى منهم فصوموا] .

وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما وإِ أعلم